الشاهد اللغوي في تفسير غريب الألفاظ في سيرة ابن هشام

د. مرتضى بابكر أحمد عباس
قسم اللغة العربية- جامعة وادي النيل- السودان

الملخص :

ضمت سيرة ابن هشام في مادتها مباحث لغوية متنوعة تُجلي فيها مؤلفها ابن هشام لغويا متقدماً ، عُني بالجوانب التي عُني بها اللغويون من بعده ، مما جعل سيرته مصدراً من المصادر اللغوية الاصيلة القديمة ولا سيما فيما يتعلق بتفسير غريب القرآن والشعر، ويهدف الباحث من خلال هذه الدراسة إلى بيان القيمة اللغوية لسيرة ابن هشام من خلال الشواهد اللغوية التي استعان بها ابن هشام في بيان معاني غريب الألفاظ مما يضيف أهمية أخرى لسيرته بجانب أهميتها التاريخية ويضع مؤلفها في صف اللغويين القدامى الذين نعتز بآثارهم .

كلمات مقتاحية :

. القرآن . الشواهد غريب الألفاظ. تفسير . الاحتجاج

Abstract

The article of Ibn Hisham biography involved different varieties of linguistic investigation which, reflected that, the author Ibn Hisham was advanced linguistically. He and other linguistics came after him were interested in different linguistic aspects, which were considered as an old and original source, specially with regard to the interpretation of some Koran strange and poem. In this study the research aimed to clarify the linguistic values of Ibn Hisham biography through linguistic evidences used by Ibn Hisham on clarifying the meanings of strange semantics and this was added another important thing to his biography beside it's important history which, provided the author an important value among the ancients linguistics classeswhom we are so proud of their contributions

المقدمة : كلما ابتعد الناس عن عصر نزول الوحي ، واختلط العرب بغيرهم من الأمم ، ودخل كثير منهم الاسلام ، كانت الحاجة ماسه لبيان ما يُشكل عليهم من غريب الألفاظ . فلجأ كثير من

المفسرين للقرآن الكريم يفسرون به بعضه البعض ، كما اعتمد كثير منهم على الشعر واستشهدوا به على المعنى الذي يذهبون اليه في فهم كلام الله تعالى . قال ابن عباس: " الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا حرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه "[1] . كذلك لجأ بعض المفسرين للاستشهاد بكلام العرب " واسقطوا الاحتجاج بكلام الاسلاميين والمولدين في اللفظ والمعنى جميعاً غير أن الجمهور أجاز الاحتجاج بكلام المولدين سلطان على المعاني فقط ، واحتجوا بكلام القدماء في اللفظ والمعنى [2]" .

كذلك استشهد بعض المفسرين بالحديث النبوي الشريف ليفسروا به غريب الألفاظ وما أشكل عليهم من آيات القران الكريم " فقد كان من المنهج الحق بالبداهة أن يتقدم الحديث سائر كلام العرب من نثر وشعر في باب الاحتجاج في اللغة وقواعد الإعراب ، إذ لا تعهد العربية في تاريخها بعد القرآن الكريم بياناً أبلغ من الكلام النبوي [3]" .

وإذا كانت السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام بن أيوب الذهلي المكنى بأبي محمد البصري (المتوفى بمصر سنة (218هـ)[4] أو (213هـ)[5] من أصل المصادر في الدراسات القرآنية فإنه كذلك مصدر أصيل من مصادر الدرس اللغوية ، إذ إن مؤلفها الجليل كان نحوياً ولغوياً ، فضلاً عن كونه مهتماً بالتاريخ والسير والمغازي.

أما كونه نحوياً فقد شهد له بذلك نحوي كبير معروف هو السهيلي صاحب " الروض الأنف " ،إذ وصفه بقوله : " فهو المُحدثُ الفقيه النسابة اللغوي النحوي [6] " ، وأما كونه لغوي فتدل عليه سيرته وكتابه : " شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب " ، وقد شهد له بالتقدم في اللغة احد كبار شراح سيرته وهو أبو ذر الخشني ،إذ قال عنه : " كان من أهل المعرفة باللغة والغريب والتاريخ والأنساب [7]" . ولابد هنا من الاشارة إلى هنا حقيقة مهمة وهي أن سيرة ابن هشام في الواقع ماهي إلا تهذيب لسيرة محمد بن اسحق المطلبي المتوفي سنة (151هـ) ، وقد عمل ابن هشام على حذف مالم يره لائقاً وبخاصة الشعر المقزع ، والاستشهاد بما رآه مناسباً من الشعر ومباحث اللغة المتنوعة وبخاصة تفسير الغريب وتمحيص الرواية ، وقد استمد ذلك كله من مصادره اللغوية الموثوق بها وتحقيقاته الذاتية المبنية على النظر في النصوص والروايات ، وكان في مقدمة من أخذ عنهم جانباً من مادته اللغوية المتنوعة ، اللغويون الثلاثة المشهورون : " أبو

عبيدة معمر بن المثنى ، ويونس بن حبيب ، وأبو زيد الانصاري " ، بالإضافة إلى ما أهدته إليه قراءاته ومطالعته في بطون الكتب ودواوين الشعر العربي القديم ، وما أهدته إليه قريحته من نقد لغوي .

وهذا الجهد العلمي اللغوي الكبير كان من جملة ما خلَد سيرة ابن هشام وكتب لها تلك الشهرة الواسعة والانتشار العريض ، إذ أن عمله في سيرة ابن اسحق ـ كما يقول الدكتور محمد رجب بيومي ـ قد جلاها لغوياً مؤرخاً نسابة عالماً بالشعر دارساً لفنونه [8] .

وإني لآمل أن يبين هذا الجهد القيمة اللغوية للسيرة ، وما فيها من شواهد لغوية تجعلها مصدرا من المصادر اللغوية القديمة التي يرجع إليها وينتفع بها لا سيما في شرح غريب القرآن والشعر العربي القديم وفي تحقيق الرواية اللغوية والعناية بها ، وفي الاستدراك ، والنقد اللغويين .. وتغني بذلك دراستنا اللغوية في الحاضر والمستقبل بالعطاء اللغوي الثر المفيد ، فضلا عن أن البحث في هذا الكتاب له معناه الدلالي ، إذ أنه بحث في السيرة النبوية ، التي نكن لها أعظم الاحترام ونوليها أكبر العناية .

تفسير غريب الألفاظ :

اهتم ابن هشام اهتماماً كبيراً بتفسير غريب الألفاظ الواردة في النصوص المتنوعة التي تضمنتها سيرته ، فقد فسر غريب القرآن الذي استشهد به ابن اسحاق أو ذكره مع الأحداث التاريخية ، لاسيما في ما يتعلق بالنزول . وفسر أيضاً غريب الشعر العربي القديم الذي رواه ابن اسحاق ، أو احتج هو به في مباحثة اللغوية والتاريخية ، فضلا عن تفسيره الغريب الوارد في النصوص النثرية التي رواها ابن اسحاق أو حررها هو في سيرته تعقيباً وشرحاً من خطب وكلمات الرسول (ص) ، وأصحابه ، أو خطب وكلمات الجاهليين والمشركين بعد ظهور الاسلام .

وقد لفت هذا المنهج اللغوي نظر الدكتور محمد رجب البيومي فقال في معرض حديثه عن سيرة ابن هشام : " وفي مجال اللغة نجد تبحراً رائعاً في عرض المادة احياناً ، ونفاذا إلى دقائق فقهها، لا يحيط بها غير عالم بالغريب " [9].

وقد نتج عن هذه العناية الجمة بتفسير الغريب ، وبخاصة غريب القرآن تضمن السيرة لمعجم لغوي يتعلق بالغريب ، يمكن أن نعده من أقدم المعجمات في بابه ، اذا جرد من السيرة ، و ذلك أن أقدم كتاب بين أيدينا الأن (غريب القرآن)لأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى(224ه) في حين أن ابن هشام توفى على إحدى الروايتين سنة (218ه)[10] وعلى الأخرى سنة (213ه)[11] ، ومن ذلك يتبين لنا أن ابن هشام هو سابق لابن سلام ومن تلاه في وفاته . ولا يستبعد أن يكون قد سبقه كذلك في تأليف سيرته . وهو غالبا ما يحتج لمعنى الغريب الذي يفسره ، فإذا استشهد عول على النصوص القديمة من القرآن والشعر وكلام العرب في تحاورها وأمثالها .

وقد تنوعت شواهد ابن هشام اللغوية في تفسير غريب الألفاظ ، فكان أكثر ما استشهد به الشعر العربي القديم ، ثم القرآن الكريم ، ثم كلام العرب ، وقليل من الحديث النبوي .

ومن الملاحظ كثرة الشواهد الشعرية على الشواهد القرآنية في سيرة ابن هشام ولعل ابن هشام قد درج على ما درج عليه الصحابة في اعتمادهم على الشعر في تفسير غريب القرآن فقد روي عن ابن عباس قوله : " إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب " [12] . وسأتحدث عنها هنا مرتبة حسب كثرتها في سيرة ابن هشام .

1- الشعر العربي القديم :

لما كان الشعر العربي ديوان العرب وسجل فيه العرب كل ما اشتملت عليه حياتهم. اعتمد كثير من المفسرين عليه لتفسير ما يشكل عليهم من كتاب الله عز وجل ، فقد كان للشعر دور كبير في تفسير القرآن حيث استمرت شواهد الشعر تجري فيما ألف حول القرآن الكريم من كتب تهتم بمعاني القرآن ومجازه وبيانه وإعرابه وتفسيره حتى قيل إن ابن الانباري كان يحفظ ثلاثمائة ألف شاهد على ألفاظ القرآن [13].

وكثيرا ما استشهد ابن هشام بالشعر العربي الفصيح على تفسير غريب الألفاظ وقد ضمت سيرته عيون الشواهد اللغوية ، وكان يستشهد بالقديم المشهور من الشعر فكانت تلمع في سيرته اسماء مشاهير الشعراء الجاهليين وفي مقدمتهم إمرؤ القيس ، وزهير ، وأعشى قيس ، وأمية ابن ابي

الصلت ، والنابغة الذبياني ، ودونهم : دريد بن الصمة ، والحارث بن حلزة ، وعلقمة بن عبده ، وأبو خراش الهزلي ، وأوس بن حجر ، والمهلهل بن ربيعة .

كما استشهد بشعر عدد من الشعراء المخضرمين وخاصة حسان بن ثابت ، ولبيد بن ربيعة ، وابن مقبل ، وأبو ذؤيب الهذلي .

ومن الشعراء الأمويين : ذو الرمة ، والكميت ، وجرير ، والفرزدق ، ودونهم في مقدار الاستشهاد : ابن هرمه ، وحميد الارقط ، والطرماح . وأما الرجز فقد تصدرهم رؤبة بن العجاج ، وأبو النجم العجلي .

ولم أجد مطلقاً ما يدل على أنه استشهد بالشعر العباسي ، بل وقف عند حدود الشعر الأموي ولم يتجاوزه بحال من الأحوال ، فكأنه وجد الأصالة اللغوية تقف عنده فقد أجمع علماء العربية " على أنه لا يحتج بشعر المولدين والمحدثين في اللغة العربية [14] " .

ومن أمثلة استشهاده بالشعر لتفسير غريب الألفاظ : تفسيره لكلمة (الأخدود) في قوله تعالى : " قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ " (البروج : الآية4) يقول : " الأخدود : الحفر المستطيل في الأرض كالخندق والجدول ونحوه ، وجمعه أخاديد[15] ، ويستشهد على ذلك بقول ذي الرمة:

من العراقية اللاتي يحيل لها *** بين الفلاة وبين النخل أخدود [16]

يعني جدولاً .

كذلك يفسر لفظة (سجى) في قوله تعالى : " وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى " (الضحى : الآية 1-2) فيقول ابن هشام : سجى : سكن . ويستدل على صحة ما ذهب إليه بقول أمية بن أبي الصلت الثقفي :

إذ أتى موهناً وقد نام صحبي *** وسجا الليلُ بالظلامِ البهيمِ[17]

ويقال للعين إذا سكن طرفها : ساجية ، وسجا طرفها[18] من ذلك أيضا تفسيره لكلمة (اصدع) في قوله تعالى : " فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ " (الحجر : الآية 94) قال ابن هشام : اصدع : أفرق بين الحق والباطل [19]. ويستشهد بقول أبي ذؤيب الهذلي

وكأنهــن ربابــة وكأنـــــه *** يسر يفيضُ على القداحِ ويصدعُ[20]

كذلك يفسر ابن هشام معنى كلمة (لمزة) من قوله تعالى : " وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ " (الهمزة : الآية1) فقال ابن هشام : الهمزة : الذي يشتم الرجل علانية ، ويغمز به[21] ويستدل على ذلك بقول حسان بن ثابت :

همزتك فاختضعت لذل نفس *** بقافيةٍ تأجج كالشواظِ [22]

كذلك يبين لنا ابن هشام معنى كلمة (فوم) من قوله تعالى : " فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا " (البقرة:الآية 61). قال ابن هشام : الفوم : الحنطة . ويستدل على ذلك بقول أمية بن أبي الصلت الثقفي :

فوق شيزي مثلى الجوابي عليها *** قطع كالوذيل في نقى فوم[23]

قال ابن هشام : الوذيل : قطع الفضة ، والفوم : القمح واحدته : فومه[24]

ثم يبين ابن هشام معنى جملة (يشري نفسه) من قوله تعالى : " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ " (البقرة : الآية 207) . فيقول : يشري نفسه : يبيع نفسه ، وشروا : باعوا ويستشهد على ذلك بقول الشاعر :

وشريت برداً ليتني *** من بعد برد كنت هامة

ويقول وشرى ـ أيضا ـ : اشترى . ويستدل على ما ذهب إليه بقول الشاعر :

فقلت لها لا تجزعي أم مالك *** على ابنيك إن عبدٌ لئيم شراهما[25]

ويعلق ابن هشام على قوله تعالى : " لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ " (التوبة : الآية 47). يقول (الإيضاع) : ضرب من السير أسرع من المشي ويستشهد على ذلك بقول الأجدع بن مالك الهمداني :

يصطادك الوحد المدل بشأوه *** بشريج بين الشد والإيضاع[26]

ويفسر كلمة (ادراجك) في قول الصحابي أبي أيوب الانصاري لأحد المنافقين الذين كانوا يأتمرون في مسجد قباء على المسلمين : " ادراجك يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم " فيقول : " أي : ارجع من الطريق التي جئت منها

ويستشهد على ذلك بقول الشاعر :

فولى وأدبر أدراجه *** وقد ناء بالظلم من كان ثمَ[27]

أي : " رجع من المكان الذي جاء منه "

2ـ القرآن الكريم :

اعتمد ابن هشام كذلك على القرآن الكريم في تفسير كثير من الألفاظ الغريبة الواردة في سيرته من القرآن ، والشعر ، والنثر .

إذ نراه يفسر كلمة (ألد) في قوله تعالى : " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ " (البقرة : الآية 204) فيقول ابن هشام : " الألد " : الذي يشغب ، فتشتد خصومته ، وجمعه : لُد ، ويستدل على ذلك المعنى بقوله تعالى : " فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا " . (مريم 97)[28]

ويفسر ابن هشام كذلك كلمة (وليجة) من قوله تعالى : " وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ " . (التوبة : الآية 16) فيقول أي : دخيل ، وجمعها : ولائج ، وهو من ولج يلج : أي دخل يدخل ، وفي كتاب الله عز وجل : " وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ " (الأعراف 40)أي : يدخل[29] .

ومن ذلك أيضاً تفسيره لكلمة (قبيلا) في الآية الكريمة : " أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا " (الاسراء 92). بالمقابلة والمعاينة ، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى : " وْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا " (55) أي عياناً [30].

وفسر كذلك لفظة (أفاك) في قوله تعالى : " وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ " (الجاثية 7) فقال ابن هشام : الأفاك : الكذاب . [31] واستدل على ذلك بقوله تعالى : " (أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ الله وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ " (الصافات 151) .

وقد يجري الاحتجاج بالقرآن على معنى لفظة غريبة مجرى الاستطراد اللغوي ، فهو حين يفسر لفظة غريبة في نص ، قد يقوده ذلك إلى بيان معنى آخر لها ضمن استعمال لغوي خاص ـ كالمصدرية مثلا ـ مدعوماً بشواهد قرآنية ، فمثلا حين يفسر كلمة (رهقاً) في قوله تعالى : " أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا " (الجن 6) ، فيقول : " إنها تعاني : الطغيان والسفه " ، ثم يبين أنها تأتي مصدراً بمعنى " التحميل " ويحتج لهذا الاستعمال بآيتين من سورة الكهف يقول : " والرهق ايضاً مصدر ، لقول الرجل للرجل : رهقت الإثم أو العسر الذي ارهقتني ، رهقاً شديداً ،أي :حملت الإثم أو العسر الذي حملتني حملاً شديداً ، وفي القرآن الكريم: " فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا "(الكهف 80). وكقوله:"وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا"(الكهف 73) [32].

ومثلها كلمة (مسومين) في قوله تعالى : " يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ " (آل عمران 125) فيقول ابن هشام أي : معلمين ويستدل على ذلك بقوله تعالى : " سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ " (الفتح 29) أي : علامتهم . و "وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83) " (هود 83.82) يقول : مُعلمة . فالمسومة كذلك هي : المعلمة [33] .

وكذلك لفظة (السلم) في قوله تعالى : " وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " (الانفال : الآية 61) يقول ابن هشام : " جنحوا للسلم : مالوا إليك . و يقول و(السلم) أيضاً : الصلح [34] ويستشهد على ذلك بقوله تعالى : " فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ " (محمد : الآية 35)

3ـ كلام العرب :

كثيرا ما يستشهد ابن هشام بكلام العرب تعزيزا للدلالة اللفظية الذي يفسرها وكثيرا ما تطالعنا جملة " تقول العرب " في تفسيره للألفاظ ، من مثل قوله في تفسير كلمة (المسومة) ـ السابق ذكرها ـ والتي يترك فيها ابن هشام المعاني السابقة لها ويقول أنها تعني : المرعية ويستشهد على هذا المعنى بكلام العرب الذي يبرهن من خلاله على وجود معنى اخر للكلمات فيقول : " تقول العرب : " سوم خيله وابله واسامها " اذا رعاها [35]. قال الكميت بن زيد :

راعياً كان مسجحاً ففقدنا *** هـ وفقد المسيم هلك السوام[36]

ويقول كذلك مفسراً كلمة (سلقوكم) من قوله تعالى : " فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ " . (الأحزاب 19) قال ابن هشام : سلقوكم : بالغوا فيكم بالكلام ، فأحرقوكم وآذوكم . تقول العرب : خطب سلاق ، وخطيب مسلق ومسلاق [37].

ويفسر ابن هشام كلمة (الجبت والطاغوت) في قوله تعالى : " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ " . (النساء 51) الجبت عند العرب : ما عبد من دون الله تبارك وتعالى ، والطاغوت : كل ما أضل عن الحق . وجمع الجبت : جبوت ، وجمع الطاغوت : طواغيت [38].

ويقول في قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آَمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا " (النساء 47) ، اذ قال " نطمس : نمسحها فنسويها ، ويستشهد على ذلك بقول العرب : " طمست الكتاب والأثر فلا يرى منه شيء "[39] أي مسحته واختفت معالمه .

ونجده أحياناً يسند الكلام إلى أحد اللغويين الذين يأخذ عنهم وبخاصة أبو عبيدة ، ففي مواضع من السيرة نجده يقول : " قال أبو عبيدة " . ومن المعروف أن أبا عبيدة كان يُعنى بكلام العرب في تفسير غريب القرآن ، الذي سماه " المجاز " بجانب عنايته الكبيرة بالشعر[40] . واستشهاده بكلام بعض النحاة أمثال يونس النحوي.

من مثل قوله في تفسير كلمة (العرم) في قوله تعالى:" فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ".(سبإ 16) فيقول : والعرم : السد ، واحدته : عرمة فيما حدثني أبو عبيدة [41].

ويقول كذلك في تفسير كلمة (أماني) من قوله تعالى : " وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ " .(البقرة : الآية 78) قال ابن هشام ، عن أبي عبيدة : إلا أماني : إلا قراءة ، لأن الأمي : هو الذي يقرأ ولا يكتب . يقول : لا يعلمون الكتاب إلا أنهم يقرأونه . قال ابن هشام : عن أبي عبيدة ويونس أنهما تأولا ذلك عن العرب في قوله عز وجل ، ويستدل على ما ذهب إليه بقوله : حدثني أبو عبيدة بذلك[42] .

وفسر ابن هشام كذلك كلمة (أبابيل) في قوله تعالى : " وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ " (الفيل : الآية 4.3) معتمدا على كلام العرب فيقول : " الأبابيل : الجماعات ، فيقول : " ولم تتكلم لها العرب بواحد علمناه ـ أي لا مفرد لها من لفظها ـ وأما (السجيل) : فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب : الشديد الصلب[43] . ويفسر ابن هشام كلمة (الصياصي) قول الشاعر دريد بن الصمة :

غـداة دعانـــي والرمـــاح ينشنــه *** كوقع الصياصي في النسيج الممدد* [44]

فيقول : الصياصي : الأصول . أخبرني أبو عبيده أن العرب تقول : " جذ الله صيصيته : أي أصله " [45]. ويفسر ابن هشام كذلك كلمة (التحنث) من حديث عبدالله بن الزبير عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجاور في حراء من كل سنة شهراً ، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية " [46] . قال ابن هشام : " تقول العرب : التحنث والتحنف ، يريدون الحنيفية فيبدلون الفاء من الثاء ، ويستطرد في شرحه فيقول كما قالوا : جدف وجدث . يريدون : القبر . ويستدل على ما ذهب إليه بقول رؤبة بن العجاج[47] :

بالمرء ذو عصف وذو انصراف *** لو كان أحجار مع الأجداف[48]

يريد : الأجداث ويقول ابن هشام : " وحدثني أبو عبيدة أن العرب تقول : فم ، في موضع : ثم ، يبدلون الفاء من الثاء[49] " .

4ـ الحديث الشريف :

كذلك استشهد ابن هشام بالحديث النبوي في تفسير غريب الالفاظ الواردة في سيرته ، إلا أن ذلك قليل إذا قيس بالأنواع الأخرى التي استشهد بها ولعل ذلك إسوة باللغويين والنحويين المتقدمين " الذين انصرفوا إلى ثقافة ما يزودهم به رواة الأشعار خاصة ، انصرافاً استغرق جهودهم ، فلم يبق فيهم لرواية الحديث ودرايته بقية[50]". فنراه يفسر لفظة (القصب) بحديث شريف في سياق تفسيره كلمة (السحر) في عبارة ابن اسحق : " فلما بلغ عتبة بن ربيعة قول أبي جهل ، انتفخ سحره " [51] بقوله : " السحر : الرئة وما حولها مما يعلق بالحلقوم من فوق السرة ، وما كانت تحت السرة فهو القصب ، ويستشهد على ذلك بقوله : " ومنه قوله ـ يقصد النبي صلى الله عليه وسلم ـ في الحديث الذي رواه عنه أبو هريرة " رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار "[52] .

ومن ذلك ايضا تفسيره كلمة (الهائعة) في قوله صلى الله عليه وسلم : إن صاحبكم ، يعني حنظلة لتغسله الملائكة . فاسألوا أهله ما شأنه ؟ فسئلت صاحبته عنه . فقالت : خرج وهو جنب سمع الهاتفة [53]" قال ابن هشام : ويقال : الهائعة .[54] ويستدل على ما ذهب إليه في معنى لفظة الهائعة بقوله : " وجاء في الحديث عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من خير معاش الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه ، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل .

ويتضح لنا من كل ما ذكر مقدرة ابن هشام في توظيف الشاهد اللغوي في تفسير غريب الالفاظ وجمع بذلك معجما لغوياً يمكن أن يعين الباحثين في مجال الدرس اللغوي لا سيما في تفسير غريب الألفاظ .

كما أهمل ابن هشام تفسير بعض الألفاظ الواردة في سيرته مثل لفظة (خطام) في قوله : "فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه** "[55] ولفظة (البز) في قوله : "فانتزع

الحلل من الناس ، فردها في البز " *** [56]" ، ومثلهما لفظة (عثنونه) في قوله: " حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطه الرحل " .**** [57] " ... وغيرها من الألفاظ التي لا يتسع المقام لذكرها ، والتي قد تعد عندنا اليوم غريبة فالغرابة شيء نسبي فما يعد اليوم غريبا ربما كان بالأمس مألوفا .

نتائج البحث :

1. يتضح لنا من تفسير ابن هشام لغريب الألفاظ تمكنه من اللغة ، وقدرته على فهم الشعر العربي القديم وبيان معانيه .

2. لا شك أن هذا العدد الكبير من الشواهد اللغوية المتنوعة التي يحفظها ابن هشام ويحتج بها تعبر عن رصيده الضخم ، ورسوخ قدمه في علم اللغة .

3. لم تكن شروح بن هشام في سيرته مسهبة بل كانت تتسم غالباً بالإيجاز ، مما جعلها محببة إلى القارئ الذي ينشد متابعة الاحداث التاريخية في السيرة فلا يملها أو يكد ذهنه بسببها ، وكأن ابن هشام قصد إلى هذا المنهج قصداً لئلا تطغى مباحث اللغة على الاحداث والوقائع .

4. اعتمد ابن هشام في روايته للشواهد على رواة كبار عرفوا بالأمانة والضبط على رأسهم أبو عبيدة ، وأبو زيد الانصاري ، ويونس بن حبيب .

5. لم يقم ابن هشام بشرح كل لفظ غريب ورد في نصوص السيرة فالغرابة نسبية ، فما يعد غريباً في عصر من العصور قد لا يعد كذلك عند من سبقه ولذا لم ير ابن هشام فيما يبدو ضرورة لشرح كل تلك الألفاظ التي تعد عندنا اليوم غريبة .

6. كثرة الشواهد اللغوية في سيرة ابن هشام لا سيما الشواهد الشعرية الأمر الذي يتعذر معه ذكرها جميعا في مثل هذه الدراسة ، وحسبي هنا أن أترك الباب مشرعا أمام الباحثين من بعدي ليتناولوها بشيء من التفصيل .

الهوامش :

1. السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، 119/2
2 . سعيد الأفغاني : في أصول النحو ، ص16
3. المصدر السابق : ص46
4. القفطي : انباه الرواة ، 211/2-212

5 ـ ذكر السهيلي أنه توفي سنة213 (انظر كتاب السهيلي : الروض الانف ، 24/1) واتفق معه في ما ذهب إليه الخشني (انظر كتاب الخشني : شرح السيرة النبوية رواية ابن هشام ، ص3)

6. السهيلي : الروض الأنف ، 15/1

7. الخشني : شرح السيرة ، 3/1

8. محمد رجب بيومي : شعر السيرة النبوية لابن هشام في ميزان النقد ، ص229

9. المرجع السابق : ص230

10. انظر كتاب السهيلي : الروض الانف ، 24/1

11 ـ انظر كتاب الخشني : شرح السيرة النبوية رواية ابن هشام ، ص3

12 . القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ،76/1

13 ـ سعيد الأفغاني : في أصول النحو ، ص60

14 ـ المصدر السابق : ص20

15. ابن هشام : سيرة ابن هشام ، 30/1

16. الخطيب التبريزي : ديوان ذي الرمة ، ص470

17 ـ سجيع جميل الجبيلي : ديوان أمية بن أبي الصلت ، ص133

18. ابن هشام : سيرة ابن هشام ، 226/1

19 ـ المصدر السابق : 237/1

20 ـ المفضل الضبي : المفضليات ، ص424

21 ـ ابن هشام : سيرة ابن هشام ، 6/2

22 ـ ورد هذا البيت في ديوان حسان بن ثابت برواية أخرى هي : مجللة تعممكم شناراً *** مضرمة تأجج كالشواظ (أنظر ديوان حسان بن ثابت ، ص198)

23 ـ سجيع جميل الجبيلي : ديوان أمية بن أبي الصلت ، ص133 .

24. ابن هشام : سيرة ابن هشام ، 132/2

25 ـ ابن هشام : سيرة ابن هشام ، 98/3

26. المرجع السابق : 4 / 143-144

27. نفسه : 125/2

28. نفسه : 97/3

29. نفسه : 142/4

30. نفسه : 203/1

31 ـ نفسه : 7/2

32. نفسه : 48/3

33. نفسه : 191/1

34 ـ نفسه : 230/2

35. نفسه : 621/3

36. محمد نبيل طريفي : ديوان الكميت الأسدي ، ص503
37 ـ ابن هشام : سيرة ابن هشام ، 150/3-151
38 ـ المصدر السابق : 151/2
39. نفسه : 401/2
40. نفسه : 43/1
41. نفسه : 12/1
42 ـ نفسه : 133/2
43 ـ نفسه : 48/1
* . ورد هذا البيت في سيرة ابن هشام : برواية أخرى :
نظرت إليه والرماح تنوشه *** كوقع الصياصي في النسيج الممدد (انظر سيرة ابن هشام 84/1)
44 ـ الأصمعي : الأصمعيات ، ص109
45 ـ ابن هشام : سيرة ابن هشام ، 153/3
46 ـ أبو الفضل زين الدين عبدالرحيم العراقي : طرح التثريب في شرح التقريب ، 198/4
47 ـ ابن هشام : سيرة ابن هشام ، 1 /218
48 ـ وليم بن الورد : مجموع أشعار العرب ، ص100
49 ـ ابن هشام : سيرة ابن هشام ، 218/1-219
50 ـ سعيد الأفغاني : في أصول النحو ، ص46
51 ـ هلال بن أسد الشيباني : مسند الأمام أحمد بن حنبل ، 293/7
52. ابن هشام : سيرة ابن هشام ، 455/2
53 ـ محمد بن عيسى الترمذي : سنن الترمذي ، 234/3
54. ابن هشام : سيرة ابن هشام ، 25/3
**. الخطام : الزمام ، وخطمت البعير زممته ، وناقة مخطومة ونوق مخطَمة . (أنظر : الجوهري : معجم الصحاح ، 1915/5)
55 ـ ابن هشام : سيرة ابن هشام ، 185/4
*** . البز : هو السلب ، وفي المثل " من عزَ بزَا " أي من غلب أخذ السلب (أنظر : الجوهري : معجم الصحاح ، 865/3) ويقال بزَ المال اي نزعه واخذه بجفاء وقهر .(أنظر : أحمد مختار : معجم اللغة العربية المعاصرة ، ص200)
56 ـ ابن هشام : سيرة ابن هشام ، 177/3
**** ـ عثنون : العثنون شعيرات طوال تحت حنك البعير ، يقال : بعير ذو عثانين ، كما قالوا : العثنون مفرق الرأس .والعثنون عظيم اللحية . (أنظر : الجوهري : معجم الصحاح ، 2161/6)
57 ـ ابن هشام : سيرة ابن هشام ، 74/4

المصادر والمراجع :

*ـ القرآن الكريم .

1. الأصمعي " أبو سعيد عبدالملك " : الأصمعيات ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط6 ، " د ، ت " .
2. ابن هشام " محمد عبدالملك بن هشام المعافري " : السيرة النبوية ، تقديم وتعليق طه عبد الرؤف ، دار الجيل ، بيروت ، " د . ط " ، 1975م .
3. أبو الفضل زين الدين عبدالرحيم العراقي : طرح التثريب في شرح التقريب ، دار احياء التراث العربي ، " د . ط " ، " د . ت " .
4. أحمد مختار : معجم اللغة العربية المعاصرة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط1 ، 2008م .
5. الجوهري " إبو نصر إسماعيل بن حماد : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط4 ، 1987م .
6. الخطيب التبريزي : ديوان ذي الرمة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط2 ، 1996م .
7. الخشني " أبو ذر بن محمد " : شرح السيرة النبوية ـ رواية ابن هشام ، تصحيح بولس برونله ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، " د . ط " ، " د . ت " .
8 ـ القرطبي " أبو عبدالله محمد بن أحمد الانصاري " : الجامع لحكام القرآن ، طبعة دار احياء التراث ، بيروت ، 1985م .
9. حسان بن ثابت : ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق : سيد حنفي حسنين ، دار المعارف ، القاهرة ، " د . ط " ، 1983م .
10. سجيع جميل الجبيلي : ديوان أمية ابن أبي الصلت ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1998م .
11 ـ سعيد الأفغاني : في أصول النحو ، المكتب الاسلامي ، بيروت ، " د . ط " ، 1987م .
12. السهيلي " عبدالرحمن بن الخطيب ": الروض الانف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق عبدالرحمن الوكيل ، مكتبة ابن تيمية ،القاهرة ، ط1 ،1990م .
13. السيوطي " الحافظ جلال الدين " : الاتقان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1988م .
14. القفطي " جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف " : انباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر ، القاهرة ، ط1 ، 1986م .
15 ـ محمد بن عيسى الترمذي: سنن الترمذي، تحقيق بشار عواد، دار العربي الاسلامي، بيروت،" د. ط"، 1998م
16. محمد رجب بيومي : شعر السيرة النبوية لابن هشام في ميزان النقد ، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، جامعة الامام محمد بن سعود ، الرياض ، العدد السادس ، 1976م .
17. محمد نبيل طريفي : ديوان الكميت الأسدي ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 2000م .
18. المفضل الضبي : المفضليات ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط9 ، " د . ت " .
19 ـ هلال بن أسد الشيبني : مسند الأمام أحمد بن حنبل ، تحقيق شعيب الارنؤوط وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، ط1، 2001م .
20. وليم بن الورد : مجموع أشعار العرب ، دار ابن قتيبة للطباعة والنشر ، الكويت ، " د . ط " ، " . د ، ت " .